إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الثالثة عشرة – العدد التاسع والأربعون – ربيع ١٤٠٢ش / آذار ٢٠٢٣م

صص ٣٩ ـ ٥٩

دراسة إزدواجية شعر إلياس أبو شبكة و محمد الفيتورى بناءً على "العلاج بالمعنى" لفكتور فرانكل

سيدسليمان سادات‌اشكور*

الملخص

يستعرض "العلاج بالمعنى" لفرانكل بمكافحة المشاكل النفسية بناءً على مبادئ وتكتيكات محدّدة من خلال إيضاح المعنى وتحليل مفهوم المعاناة، فيسعى إلى إيجاد معنى فى الحياة باعتباره القوة الدافعة الأولى لكل شخص ويساعد الناس على إيجاد معنى معاناتهم وتحويل المواقف الصعبة إلى السلام. يتغير معنى الحياة باستمرار، لكنه لا يمّحى أبداً. دور المعالج هو توسيع مجال رؤية الإنسان، حتى يتمّ وضع المعنى والقيم فى مجال رؤيته ومجال وعيه الذاتى وتغلى الحقائق بداخله دون تدخّل الآخرين. يتمّ اكتشاف هذا المعنى وتجربة المعانى المكنونة عند الإنسان بإطاقة الأوجاع والمعاناة وإنجاز الأعمال القيّمة وتجربة الغايات العالية. "العلاج بالمعنى" له علاقة وثيقة بالأدب والشعر لاعتماده على اللغة وعلاج النطق. فتظهر دراسة مقارنة فى أعمال اثنين من الشعراء المعاصرين، إلياس أبوشبكة ومحمد الفيتورى، أن هذين الشاعرين كان لهما نهج معاكس نسبياً فيما يتعلق بمفاهيم "العلاج بالمعنى" لفيكتور فرانكل. لا يعطى أبوشبكة أى معنى موثوق به للدنيا والعيش فيها، ودائماً ما يتّخذ خطوات تجاه نبذ العالم بشكل متطرّف تساهمت فى تكوينه أسباب مثل الفقر، وفقدان والده مبكراً، والعوامل السياسية والاجتماعية السائدة آنذاك. أمّا الفيتورى فيقدّس الآلام والمعاناة ويسعى لتحقيق أهداف نبيلة والقيام بأعمال قيّمة تتجسّد فى شكل شعر المقاومة والوطنية. فمن الأبعاد العديدة التى تؤثر على سلوك الإنسان فيما يتعلّق بـ"العلاج بالمعنى"، تمّ البحث حول دور الأبعاد النفسية، الاجتماعية والبيئية فى أعمالهما، فقد تجلّى شعر هذين الشاعرين بزاوية متناقضة تجاه المعنى والمسؤولية الذاتية والالتزام الوجدانى.

الكلمات الدليلية: أبوشبكة، الفيتورى، العلاج بالمعنى، الغاية السامية، حرمة المعاناة.

---

*. أستاذ مساعد، قسم اللغة الفارسية وآدابها، فرع دهدشت، جامعة آزاد الإسلامية، دهدشت، إيران.
soleiman.sadatashkevar@iau.ac.ir

تاريخ الاستلام: ١٤٤٤/٠٤/١٧م تاريخ القبول: ١٤٤٤/١١/٢٧م

المقدمة

يمتلک النّاس اليوم وسـائل عيش مختلفة أكثر من أی وقت مضی، لكن ليس لديهم معنی عالٍ لكيفية العيش. فما معنی الحياة؟ هذا هو سـؤال أهل هذا القرن. لقد حرّمنا التكنولوجيا من الحاجة إلی اسـتخدام مهارات البقاء النفسية علی قيد الحياة، وعلی ما يبدو فعلياً لا يستطيع المجتمع تلبية جميع الاحتياجات خاصةً الاحتياجات النفسية.

يظهر فی جيل الشـباب، أكثر من غيره، إنحدار التقاليد وعدم جدواها. يوضّح هذا المقال فقدان التقاليد وهو من الأسـباب الرئيسة فی ظهور الفراغ الوجودی. إنّ العثور علی الخيوط الدقيقة للحياة المنهارة فی صورة خالية عن المعنی والمسـؤولية هو هدف وموضوع النضال من أجل "العلاج بالمعنی"، فيأتی المعنی من العمل الهادف وهو مسؤول عن الالتزام.

يعانی الإنسان من فراغ وجودی مزعج فی جميع المجالات يوميّاً. ولا شكّ أنّ مجال الأدب والفـن لا يخلو من هذه القضية. تنغمـس أعمال الفنانين دائماً فی موجات من الأفكار اللانهائية والمختلفة منهم الشّعراء والكتاب.

إلياس أبو شـبكة ومحمـد الفيتوری هما من كبار شـعراء الأدب العربی المعاصر، تركا أعمالاً باقية وخالدة فی سـاحة الأدب والشعر. تكشف دراسة الأعمال الشّعرية لهذين الشـاعرين، بغضّ النظر عن خصائصها الفنّية والأسلوبيّة، إختلاف وجهات نظر الشاعرين حول العالم، الحياة والموت وفلسفة الحياة، والتی يمكن دراستها جيداً والتعليق عليها من منظور نظرية فرانكل فی "العلاج بالمعنی" أو "المعنائية" بسـبب تأثيرها علی عمق وجود قارئيها.

تسعی "المعنائية" أو "العلاج بالمعنی" بمبادئها وتكتيكاتها الخاصّة، والتی تستند إلی أسس نفسية، إلی إيجاد معنیً فی الحياة كأولّ قوة دافعة ومحرّضة فی كلّ شخص. يعتبر فرانـكل "العلاج بالمعنی" نوعاً من العلاج النفسـی فی إطـار مصطلحات ذات صلة بـ"المعنائيّة".

جدير بالذّكر أنّ الباحث فی هذا المقال لم يسع للحكم والتعليق علی السّمات الفنّية لشعر الشاعرين ونوع شـخصية هذين الأديبين، وإنّما قام فقط بتحليل قصائدهما بناءً

على أسلوب فرانكل فى "العلاج بالمعنى".

إنّ خلفية حياة إلياس أبوشبكة والأفكار اللاحقة بها، دفعت الشاعر فى قصائده إلى اعتبار الحياة عبثية وفى مراحل من العدمية يمكن رؤيتها بوضوح فى قصائده المختلفة، ولكنّ قصائد الفيتورى مبنية على الأســـس التى تجعل الشّاعر ببواعثه والتزامه، تزيل التعب والاكتئاب. يعتمد "العلاج بالمعنى" لفرانكل على فحص نفســـى عميق لهذا النهج الفكـــرى، ومن خلال التأمل فى فكر وحياة مثل هذه الشـــخصيات، يحاول مواجهتها وتحليلها بتكتيكات خاصّة وقواعد محدّدة.

أسئلة البحث

١. ما هو مستوى تأثير البواعث الخارجية فى ازدواجية التّعبير عن "المعنائية" فى شعر إلياس أبوشبكة ومحمد الفيتورى بناءً على نظرة فيكتور فرانكل؟
٢. أللحبّ والوطنيّة والمعتقدات الدّينية أثر فى معالجة مضامين "المعنائية" بناءً على وجهات نظر فيكتور فرانكل فى أشعار إلياس أبو شبكة والفيتورى؟
٣. هل للأبعاد النفسية والإجتماعية والبيئية دور فاعل فى أعمال هذين الشاعرين؟

فرضيات البحث

١. يتأثر التعبير عن "المعنائية" بالبواعث الخارجيّة فى شعر إلياس أبو شبكة ومحمد الفيتورى بالإضافة إلى طبيعة الإنسان وصفاته المتأصّلة فى الشّاعرين.
٢. للحبّ والوطنيّة والمعتقدات الدّينية أثر فاعـــل فى معالجة "المعنائية" والتعبير عنها بناءً على وجهات نظر فيكتور فرانكل.
٣. للأبعاد النّفسية والاجتماعية والبيئية دور فاعل نسبيّاً فى أعمال هذين الشاعرين.

خلفية البحث

قد تناول العديد من علماء النفس "العـــلاج بالمعنى" فى عصور مختلفة، خاصةً فى العصر الجديد، نظراً إلى حاجة العصر وانغماس شـــعوب العالم فى الأفكار المادية وما يترتّب عليها من الآثار النّفســـية والنتائج السلبيّة، فأُنتجت عدة أبحاث ومقالات حول

هذا موضوع فی الأدب العربی حتی الآن، فلم یکن هناک بحث مقارن حول دراسة "العلاج بالمعنی" لفرانکل فی أعمال الشعراء، فاخترنا هذین الشاعرین لدراستنا، وذلک بسبب وجهات النظر المختلفة لهما حول قضایا الحیاة والصلات الدلالیة العدیدة لأعمالهما مع الأسس النفسیة لـ"العلاج بالمعنی" لفیکتور فرانکل، ومن ثمّ رأینا دراسة هذا الموضوع فی الأدب العربی مثمرة من جوانب مختلفة، وکما أنّ هناک دراسات عدیدة وأبحاثا حدیثة أنجزها العلماء حول القضایا النّفسیة فی لغات مختلفة من العالم. فمن بین الأبحاث الأدبیّة ذات الصلة التی أُجریت فی هذا المجال، یمکن ذکر ما یلی:

- "انسان سالم و ویژگی های آن از دیدگاه ویکتور فرانکل" (الشخصیة السلیمة وخصائصها من وجهة نظر فیکتور فرانکل) (طلعت حسنی باقرانی، مسعود آذربایجانی، مجلة روانشناسی و دین، ١٣٩٠ ش، العدد ٢)
- "تحلیل قصیدة بدر شاکر السیاب "رحلة أیوب" بناءً علی "العلاج بالمعنی" لفیکتور فرانکل" (قاسم مختاری، مطهر فرجی، مصطفی آدینه، مجلة نقد أدب عربی معاصر، السنة ٧، ١٣٩٥ش، العدد ١٤) فتمّت فی المقال مناقشة الجوانب المختلفة فی سفر أیوب من منظور "العلاج بالمعنی".
- "اراده معطوف به معنا در غزل های حافظ و معنا درمانی فرانکل" (الإرادة المعتمدة علی المعنی فی غزلیات حافظ الشیرازی و"العلاج بالمعنی" لفکتور فرانکل) (محمد حسین نیکدارشد أصل، مجلة پژوهشنامه ادبیات تطبیقی، الفترة السادسة، ١٣٩٣ش، العدد ٢٢) یتناول تجانس أفکار حافظ وفرانکل ، وخاصة وظیفة الحبّ فی "العلاج بالمعنی" من وجهة نظرهما.
- "مقایسه تطبیقی معنای رنج در اندیشه ویکتور فرانکل و مولانا" (مقارنة معنی المعاناة فی فکر فیکتور فرانکل وابن الرومی) (شبنم قدیری یگانه، اسماعیل آذر، ساره زیرک، مجله جستارنامه ادبیات تطبیقی، السنة ٥، ١٣٩٩ش، العدد ١٦) إنه یفحص المعانی ومؤشّرات المعاناة الهادفة فی فکر فرانکل وأعمال المولوی.

ولا بدّ أن نشیر هنا إلی الفرق بین هذه الدراسة وسابقاتها أنّها أوّل دراسة قامت

بتطبيق نظريّات فيكتور فرانكل فى شـــعر اثنين من الشعراء الكبار المعاصرين بما فى حياتهما وشـــعرهما عقائـــد وآراء متباينة حول الحياة وأغراضهـــا. فالغرض من هذه الدراسة هو الكشف عن هذه الآراء المتباينة حول الحياة وجذورها النفسية وما يرتبط بها من العلوم الاجتماعية والبيئية بالتأكيد على "العلاج بالمعنى" لفيكتور فرانكل.

منهج البحث

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفى التحليلى، والذى من خلال دراســـة الأسس النفسية لفرانكل وتحليلها، يتفحص بشكل نقدى تواتر هذه الأسس فى شعر إلياس أبو شـــبكة ومحمد الفيتورى. تفسّـــر هذه المقالة مفهوم المعنى فى الحياة ويبحث عن أسس "المعنائية" مثل الهدف السامى، والمسؤولية الذاتية، وحرمة المعاناة، فى قصائد أبو شبكة والفيتـــورى، بناءً على نظريّات فرانكل فى كتابـــه "العلاج بالمعنى"، فمن ثمّ يتمّ فحص وتحليل الأدلة والأمثلة على أساس هذه المبادئ، فى شعر هذين الشاعرين، كما تتمّ من خلال فحصها أيضاً دراسة مدى تأثير هذه الأشعار على قارئيها بناءً على آراء فيكتور فرانكل. فالمقال يبحث عن إدراک مفهوم المعنى وحلول شـــغف الحياة وتحقيق السلام الداخلى، كما يحلّل آثار إعطاء معنىً لســـلوک الإنسان، مسؤولياته، آلامه ومعاناته فى قصائد هذين الشـــاعرين الكبيرين الذينِ لهما تأثير كبير على الناس، من خلال تبنّى منهج مختلف نســـبيّاً فيما يتعّلق بأســـس "العلاج بالمعنى". فلذلک تمّ اختيار شاعرين مؤثريـــن لهما وجهات نظر مختلفة حتى يمكن عرض مبـــادئ فيكتور فرانكل فى مرآة شعرهم.

الإطار النظرى للبحث

يعودالأصل المعجمى لـ"العلاج بالمعنى"(Legotherapy) إلى الكلمة اليونانية (Logos) تعنـــى كلمة أو معنى، ولكنّ المعادل الأكثر تعبيراً هـــو المعنى. (فرانكل، ١٣٨٩: ١٤٩) وبمعنى أوســـع، يمكن تفسيره على أنّه شيء يمكن أن يكون سبباً للوجود. يفضّل فيكتور فرانكل المعنى كترجمة بسيطة لهذه الكلمة. وبناءً على ذلک، فإن العلاج أو الشفاء جزء من مرور المعنى الّذى يهتم به فيكتور فرانكل، فإن "العلاج بالمعنى" هوالعلاج النفســـى

يركّز على المعنى. (المصدر نفسه: ١٤٢)

يتحدّث فرانكل عن البحث عن المعنى كقوة معاكسة لـ"مذهب المتعة" التى يعتمد عليها التحليل النفسى لفرويد و"السلطويّة" الّتى أكّد عليها أدلر. يعتبر "مبدأ اللّذة" القوة الدافعة لمبدأ الشخصية فى التحليل النفسى لفرويد، فمن المبرّر أنّ هدف الإنسان فى الحياة هو تجنب الألم والوصول إلى المتعة، وهذا المبدأ هو سبب بقاء الإنسان. لكنّ فرانكل لديه اعتقاد يتجاوز عن هذا. فأساس العلاج النفسى عنده هو المعنى بمواصفاته الخاصّة. (المصدر نفسه: ١٥٣)

وبناءً على ذلک، فإنّ المعنى و التوجه نحوه حقيقة لايمكن إنكارها فى حياة الإنسان، والطبيعة الأساسية للإنسانية هى هذه الحقيقة التى تُلهم الوجود البشرى. هذه الخاصية حتمية ومميزة للبشر، وفى الواقع لا يمكن للمرء أن يستمرّ الحياة بطريقة صحيحة بدونه. فمن خلال الاعتماد المفرط على العلم والعقل، ابتعد الناس المعاصرون عن القيم الفلسفية والروحية الكبرى، والقيم التى يمكن تعميمها على البشرية جمعاء. (شولتز، ١٩٧٧: ٢٠٢)

يعتقد فرانكل بأنّ هناک معنى مخفياً فى كلّ كارثة تحدث فى الحياة، إذا قبلنا أنّ العالم الذى نعيش فيه هو عالم من المفاهيم والعلامات، فكلّ حدث هو رسالة لشخص منتبه ليراه جيداً ويفهم رسالته المخفية. إذا وسع النّاس مجال رؤيتهم ليروا المعنى والقيمة المختبئين فى تلک الكارثة، فسيكونون قادرين على قبولها بشجاعة ومحاربتها بدراية، وعندما يصلون إلى القبول لذلک المعنى، يمكنهم القيام بواجباتهم ومسؤولياتهم الخطيرة. (فرانكل، ١٣٨٩: ٧) يجب أن يدرک الإنسان أنّ الكارثة هى الّتى تبرّر الواقع والحياة وتجعل الوجود الإنسانى مزدهراً، فلذلک ينبغى النظر إلى هذه القضية من منظور آخر.

يرى فيكتور فرانكل أنّ الحياة لها معنى بأى ظرف من الظروف، حتى أكثر أنواعها مأساوية. فدافعنا الرئيسى فى الحياة هو رغبتنا. "العلاج بالمعنى" أو "المعنائية" بغضّ النظر عن العرق واللّون والدّين والمعتقدات الشخصيّة، نوع من فلسفة الحياة التى تقوم على الاحترام العميق لكرامة كلّ شخص. وبناءً على ذلک، فإنّ الحياة لها معنى غير مشروط ويمكن لأى شخص العثور عليه واكتشافه فى أى مكان وفى أى وقت. من وجد

الغرض من الحياة يبنيها بأية طريقة. (المصدر نفسه: ١٥٥)

سيفيد البشر من هذه الحرية بأى ظرف من الظروف. حرية الاختيار هى إحدى أبعاد الوجود البشرى. فلا تحدّد لنا الغريزة أو الوراثة أو الظّروف البيئية كلّ أفكارنا و إنجازاتنا.

يعتقد فرانكل أنّه إذا أردنا التمتّع بصحّة نفسيّة، فلدينا الحرية فى اختيار سلوكنا، ووفقًا لنظرة فرانكل، الحرية تعنى التحرر من ثلاثة أشياء: الغرائز، المزاجات والعادات، البيئة.

إنّ الإنسان المعاصر، الذى ليس لديه ما يكفى من المعتقدات والقيم الروحية ولا يعرف سبب المعاناة والشدائد فى حياته، قد عاش نوعاً من الحزن واليأس. يعود معظم المضايقات والأمراض فى القرن الحالى إلى الافتقار إلى الدافع والرغبة والمعنى المناسب لحياة الإنسان وأنشطته وعدم قبول المسؤولية عن الحياة الفردية.

يستخدم فرانكل تجربته القيّمة فى "العلاج بالمعنى" من خلال تحليل وشرح مفهوم المعاناة. يساعد "العلاج بالمعنى" الأشخاص على إيجاد معنىً لآلامهم ومعاناتهم وتحويل المواقف الصعبة إلى السلام والراحة. تلعب "المعنائية" دوراً عندما يواجه الشخص أحداثًا ومشاكل لا يمكن التنبؤ بها فيكون يائساً ومربكاً ليس لديه خيار سوى قبول مشكلته أحيانًا. يمنح الإنسان السلام ويجعله كائناً نشطاً ومقاتلاً وخلّاقًا وفعّالاً إعطاءُ المعنى الضرورى لأحداث الحياة والرسم الدقيق لمشاعر الفرد وعواطفه وتقبُّل مشاعره وقضاياه غير المرغوب فيها، والضحک على مشاكل الحياة، وإيلاء المزيد من الاهتمام لحكمة المعاناة الفردية، والعمل قدر الإمكان تجاه الحبّ والتضحية من أجل الآخرين.

يؤمن بعض العلماء الآخرين أيضاً بالمعنى الّذى يتجاوز الاحتمالات اللامحدودة للقيم الفردية الكامنة للانضمام إلى الواقع، دون العبث بالأسرار العميقة. (ماسلو، ١٩٧١: ١٢٥)

يحاول "العلاج بالمعنى" رسم حدود خيارات الشخص وحرياته. الهدف من "العلاج بالمعنى" هو تمكين النّاس من اكتشاف معناهم الفريد. (المصدر نفسه: ٢٢) إنّ البحث عن المعنى هو حقاً حاجة خاصّة لا يمكن اختزالها إلى مستوى الاحتياجات الأخرى

وهى موجودة فى جميع البشر بدرجة أكبر أو أقلّ. فيظهر الإنسان إنسانيته بهذه الطريقة وفقاً لنظرة فرانكل، حتى التســـاؤل عمّا إذا كان هناك أى معنى فى العمل أم لا ؟ يعدّ إنجازاً بشرياً.

عندما يخطو "العـــلاج بالمعنى" إلى عالم الروحانية اللاواعيـــة، يتمّ إبراز الإدراك اللاواعى من خلال اكتشـــاف اللاوعى الروحى، ففى هذه الأعماق الروحية اللاواعية، يتـــمّ اتخاذ خيارات وجودية كبيرة وفقاً لرؤية فرانكل.تصل اســـتجابة الإنســـان إلى مســـتوى اللاوعى بهذه الطريقة. فيجب أن يكون الشخص أيضاً مستجيباً فاقداً للوعى بالإضافة إلى كونه مستجيباً واعياً.

يتمّ التمييز بين المحتوى اللاواعى وغريزة اللاوعى والروحانية اللاواعية على أساس نظرة فرانكل، فيشـــير إلى أنّ فرويد كان يتحدّث فقط عن غريزة اللاوعى؛ ومع ذلك، يمكن أن تكون الروحانية أيضًا غير واعية. وكما يرى فرانكل، الوجود الإنســـانى هو الوجود الروحى. (المصدر نفسه: ٣٨)

لا يعتبر فرانكل مجال العيش والحياة فضاءاً عاماً ومطلقاً، وما وراء الفكرة الشائعة، فهو لا يفسّـــر الحياة على أنّها تشتمل على أحداث متكرّرة. فيرى لحظات الحياة بمثابة قطع شطرنج يجب على الشخص استخدامها فى الفرص والمواقف المختلفة. لذلك يتغير معنى الحياة من شخص لآخر ومن لحظة إلى أخرى. (المصدر نفسه: ١٦٧)

من خلال الإيحاء بأنّ الإنسان مخلوق مسؤول يجب أن يدرك المعنى المحتمل لحياته، لا ينبغى للمرء أن ينظر إلى العالم على أنه مظهر من مظاهر "الذات" أو كوســـيلة وهدف يخدم الازدهار النفسى وتحقيق الذات، ففى كلتا الحالتين، تبدو الصورة التى نرسمها عن العالم يســـيرة غير مهمة. لقد أظهرنا حتى الآن أن معنى الحياة يتغير باستمرار، لكنه لا يختفى أبداً. ووفقًا لمناهج "العلاج بالمعنى"، يمكن اكتشـــاف هذا المعنى بثلاث طرق: ١- من خلال القيام بعمل ذى قيمة ٢- من خلال اختبار "قيمة" عظيمة ٣- التســـامح مع المعاناة وحرمة الألم. (فرانكل، ١٣٦٦: ٤٠-٨١)

ليس الغرض من الحياة تجنّب الآلام الحادثة أو التمتّع باللذات، بل إنّما الغرض هو إيجاد المعنى الذى يجعل الحياة هادفة. لهذا السبب، يتحمل الناس المعاناة التى لها معنى

وهدف، عن طيب خاطر، فلا داعى للتذكير بأن المعاناة لا معنى لها إذا لم تكن ضرورية. يفوق إدراكُ المعنى النهائى للوجود الفهمَ البشرى حتماً، فيشار إليه فى "المعنائية" على أنه يشـــتمل على معانٍ عالية. ما طُلب من الإنســـان ليس أنه يجب التسامح مع عبثية الحياة وفقاً لتعاليم بعض الفلاســـفة الوجوديين، بل بالأحرى، يجب على الإنسان قبول عدم قدرته على فهم المعنى غير المشـــروط للحياة، من خلال المنطق. لأن المعنى أعمق من المنطق. (فرانكل، ١٣٨٩: ١٨٧)

فيعتقد فيكتور فرانكل أنّ جميع الأحداث فى العالم لها هدف ومعنى وراء مظاهرها البســـيطة. لذا فهو يدعو إلى الالتزام، الحب، المسؤولية والأمل مشيراً إلى أنّ الافتقار إلى الفهم الصحيح للأحداث من قبل البشـــر بســـبب محدودية عقله ليس دليلاً على أنّ تلك الأحداث بلا هدف أو لا معنى لها.

"المعنائية" فى فكر وشعر إلياس أبوشبكة

ولد إلياس أبو شبكة عام ١٩٠٣م فى نيويورک وتوفى عام ١٩٤٧م بسبب سرطان الدم. (سابايارد، ١٩٦٢: ١٢) نوع حياة أبوشـــبكة فى أمريكا الشمالية وفقدان والده الحنـــون خلال طفولته، والّذى كانت تربطه به علاقة عاطفية قوية، ثم وفاة والدته الغنية التى كانت المعيلة الوحيدة له خلال فترة حياته، تسبّبت سنوات مرهقة فى مرارة شديدة فى حياة إلياس أبوشـــبكة وتركت خيبة شاملة لاينتهى فى روح هذا الشاعر والكاتب المتميز. أهدى الشاعر مجموعة الغيتار المليئة باليأس لروح والده. (أبوشبكة، ١٩٩٩: ١٧)

بدايـــة الحرب العالمية الثانية خلال طفولة الشـــاعر، والقمـــع والفجوة الطبقية، والاضطرابات السياســـية فـــى ذلک الوقت، وأخيراً مرض الســـرطان الّذى لا يمكن علاجه من بين مشاكل أخرى، أضرّ روح الشاعر وجرّه إلى هاوية موجات فى العاصفة الشـــديدة الروحيّة ومن ثمّ الفراغ. (عبود ، ١٩٩٨: ١٠) ويبدو على أنّه لاسبيل للشّاعر ســـوى الاستســـلام فى كل تناقضات الحياة وهجوم خيبات الأمل. هذه هى التجربة الثقيلة التى أدركها فرانكل مؤلّف كتابيه "العلاج بالمعنى" و"الإنســـان نحو المعنى"، فى السجن وتحت أحذية الجلادين مع سجناء آخرين.

الإبتعاد عن "المعنائية"

يتّضح من خلال دراسة أشعار إلياس أبو شبكة ، أنّ هذا الشاعر لا يعطى أى معنى موثوق به للعالم والحياة، و يتّخـــذ دائماً خطوات تجاه رفض العالم بطريقة متطرّفة كان لعديد من العوامل الأخرى أثر فى تشـــكيل هذا الهروب المميت. يشـــير إلى فقره فى قصيدة تحمل عنوان الفقير:

شاعر الحب قيل عنى قبلاً / لكنّ اليوم شاعر البؤساء (أبوشبكة، ١٩٩٩: ١٩)

يصوّر أبوشبكة العالم كمحور يدور حوله كل الشرور والمساوئ. ليس لديه رغبة فى البقاء فى العالم المليء بالفساد والدّمار، ولهذا ينشد هكذا:

إيّاک والدّنيا فانّ لباســـها / يبلى المبرّم وطيبها لا يعبق / فى كل حين يســـتهلّ من الأذى / مطر يخفق أماكنا ويضيق (المصدر نفسه:٢٣٠)

كما يعبّر عن قلقه من القضايا السياسية المضطربة فى العالم، لأنّ العلاقة بين الأدب وبيئته قوية جداً، حيث قيل: «الكاتب ابن بيئته» (الفاخورى، ١٤٢٧: ٢٥)

فإنّى ســـأنأى عن بلادى مسافراً / فلســـت أطيق الظلم فى البلد المحل/ رأيت هنا رهطاً من الناس آثروا / يد الظلم أن تعلو وتفتک بالعدل (ابو شبكه، ١٩٩٩: ٢)

الشكوک الناتجة عن الانعزال و العدمية

يعانى إلياس أبوشبكة من الشعور بالوحدة فى ميدان النضال ضد الفراغ الوجودى والعدمية ولعل يأسه وشعوره بالغربة جعلاه ضعيفاً، فينشد:

/ يؤآسى همومى وَما من صديق / تَقول لى وَإمّا رأَتنى / مجدّاً تَقف عثرةً فى طريقى بلوتُ الحَياةَ فَما مِن أَنيسِ

فيا ربِّ أَطفىء سراج شعورى / لِأَصبح ذا بصر مستفيقِ / وأَخرس بصدرى الشباب فَإِنّى / أَودُّ استماع فؤادى الحقيقى

لَقد طال عهدى بالظلماتِ / ولم أَســـتنر بســـوى الظلماتِ / كأَنَّ الدُجى مشعَلٌ فى فؤادى/ تزيتُه بالشقاءِ الحياة (أبو شبكه، ١٩٩٩: ١٣٠)

تأثر شعره بموقفه من الحياة وأحداثها المريرة فامتلأ بمفردات مليئة بالفراغ الوجودى

مثل الهموم، الظلمات، الشقاء، الحسرات، الدجى ورجيم الردى.

عدم الثقة بالحياة الهادفة والملتزمة

لا يعيش الإنســـان مع الرخاء فقط، فالأهمّ هو أن يواجه الإحساس باللامعنى فى الحياة و يتعامل معه. لأنّ اضمحـــلال التّقاليد وعدم جدواها يظهران أكثر من غيرهما فى جيل الشـــباب. يوضّح هذا المقال فقدان التقاليد وهو عامل مهم فى ظهور الفراغ الوجودى و العدميّة. قد انعكست الحداثة فى القرن العشرين مظاهرها فى حياة أناسها فى معظم الحـــالات، فلا توجد التقاليد والقيم التقليدية فى خواطر الناس وأســـاليب حياتهم على عكس القدماء، ونتيجة على ذلک لا يعرف الإنسان المعاصر ماذا يريد أن يفعل وما يقصد من الحياة فيقلّد ما يفعله الآخرون أو يفعل ما يريده الآخرون أحيانًا. من ناحية أخرى، هناک أيضًا أشـــخاص يبدون سعداء فى المواقف المتباينة حتى فى الظّروف الســـيئة للغاية. ما هو السبب؟ هناک حبّ فى حياة الإنسان يربطه بأولاده أو بأى شـــخص أو أى شىء يحبّه. فى حياة شخص آخر، موهبة يمكنه استخدامها، أو ربّما هناک ذكريات تستحقّ الاحتفاظ بها، فتستمتع بهذه الذكريات. إنّ العثور على الخيوط الدقيقة لحياة منهارة على شكل صورة مبنية على المعنى والمسؤولية هو هدف وموضوع النّضال من أجل "العلاج بالمعنى" وبالطبع لاتجبر الإنسان غرائزُه البشرية على فعل أى شىء على عكس الحيوانات.

يتّضح من قصائد إلياس أبو شبكة والتأمّل فى حياته أنّه يرى أنّ نهاية كل المخلوقات هـــى الدّمار ووبرأيه يظهر التاريخ ذلک بوضوح. المبالغة فى أصالة العالم، والهروب من الواقع والتفكير فى الموت هى من السّمات البارزة فى قصائده.

هذه الكائنات بادت سراعاً / قصفتها المنون قصف الغصون / سائل الكتب والتّواريخ عنها / واقرأ الخبر فى ســـجل القرون / ليس عمر الإنسان غير منام / تتمشّى أشباحه فى العيون (ابو شبكه، ١٩٩٩: ١٦٢)

كما ينشد :

كيف لا أندب أمسى / ومماتى فى غدى (المصدر نفسه: ٢٣٣)

ينشد أيضاً:

هذى الحياة ثمالة كأس / سقاها رجيم الردى للوجود / فدعنى أنلها بقايا جمادى / لتمتصّها حشرات و دود (المصدر نفسه: ١٣١)

وفى النهاية يعتبر إلياس أبوشبكة نفسه جثّة ستُغذّيها الحشرات وتتحلّل، وكأن الشاعر لا يؤمن بالحياة بعد الموت ويعتبر الموت نهاية للإنسان وأعماله. فينشد قائلاً:

العمر قصرٌ نحن بين رحابه / والموت منتصب على أبوابه (المصدر نفسه: ١٨٢)

أبوشبكة متشائم جدّاً حول الدنيا والعيش فيها، فيمكننا أن نقول إنّ الدّنيا على رأس الأمور التى كان متشائماً بشأنها، فهو يعتقد أنّ العالم ملىء بالقمع واللامساواة ومسلخ يموت فيه الجميع حتماً.

هذا الوجود مشانق نصبت لنا / والظلم فى ساحاته السفاح (المصدر نفسه: ١٨٦)

أبوشبكة يرى العالم مليئاً بالألم والحزن ويعتبر البقاء فيه مصدر معاناة إنسانية فينشد:

هذه الدنيا سآم / تعب فيها الإقامة (المصدر نفسه: ٤٥)

يشتكى أحياناً من ظلم أهل زمانه بالإضافة إلى عذاب الحياة فى الدنيا:

ماذا تسرّ إلى القمر / يا أيها الطير السجينَ /هل أنت مثلى فى السهر/ تشكو عذابك للسّنين (المصدر نفسه: ٢٠٦)

يعتقد أنّ ما يوجد فى العالم هو أكاذيب وقذف وظلم. ومن يبحث عن العدل والمساواة لن يصل إلى الهدف ويفشل:

رأيتک يا شبح الحزن تبكى / وما فى الوجود سوى المفترى / إذا كنت تنشد تلک العدالة / فاذهب إلى كوخک الأحمر (المصدر نفسه : ٢٠)

وينشد فى قصيدة شهيرة أخرى:

ما الجسم فى هذا الوجود سوى بلىً / تمشى العصورعلى أديم ترابه/ من عهدآدم و الضريح مهيأ / وجميع هذا الخلق هنّ طلابه /و الكائنات لدى الردى ألعوبة / حتى الخلود يصير من ألعابه (المصدرنفسه: ١٨٢)

الابتعاد عن الحبّ كهدف نبيل

يفشل إلياس أبو شـــبكة فى الحب الحقيقى أيضاً، وهو أحد العناصر الأساسية فى مدرسة فرانكل لـ"العلاج بالمعنى" ويقول إنه لايستطيع أن يتحمّل عبء الحبّ ولا يستمدّ منه أى معنى:

دعينى اندب كالثاكل / فلســـت ســـوى عاشـــق راحل / حملت الهوى فى فؤادى الضعيـــف / فاثقل حمل الهوى كاهلى / دعينى امـــوت ولا تنثرى/ دموعاً على هيكل خامل /فدمع الهوى من بنات الخلود / فلا تهرفيه على زائل (المصدر نفسه:١٥٦)

يمكن رؤية ذروة اليأس والعجز والتشـــاؤم عند الياس أبو شبكة عندما يخاطب الله، فهو يعتبر الله الســـبب الرئيسى لكل آلامه وأحزانه. ويحسب إنّ الخالق فهو الذى خلقه تعيساً منذ البداية ليعانى فى الدنيا، وهذا البؤس منع أى شخص من الاستماع لشكواه وإعطائه حقوقه، لأن الآخرين يرونه إنسانًا سيئاً آثماً.

ربّاه ! لم تخلقنى تاعساً/أشكو ، ما من سامع منصف / كأنّنى فى الكون جانٍ أتى / بحادث أعيب مستكنف (المصدر نفسه: ٢٣٢)

فقد امتلأت أشـــعار هذا الشاعر بمثل هذه الأبيات حيث تتضمّن هذه المفاهيم البنية الأساسية لشعره:

دعينى أموت فحظى التعيس / هوى مع كوكبه الآفل / دعينى أموت فصخر رجائى / تحطّمه موجة الباطل (المصدر نفسه: ١٥٦)

العزلة عن تجربة المعانى الملهمة

لا يوجـــد الكثير من الإيمان بحرية تجربة المعانى المختلفـــة والاختيار والتقدير فى أشـــعار أبو شبكة، وهو ما يقصده "العلاج بالمعنى" لفيكتور فرانكل، فضلاً عن الثقة فى أى نوع من التجارب الروحية.

ألفيـــت دنيا من فواجعها الورى / على بابها لوح من الرق اســـود / قرأت عليها أحرفاً خطّها اللظى / يروعك منها إثنان: سجن مؤبّد (ابوشبكه، ١٩٩٩: ٢٢٤)

بالإشـــارة إلى المبادئ الأساسية لمدرسة فرانكل فى كتاب "العلاج بالمعنى"، والتى

هی ١- القيام بشـــیء ذی قيمة ٢- تجربة عمل مشـــرّف٣- تحمّل الألم والمعاناة، فنری بوضوح عند دراستنا لأشعار إلياس أبو شبكة أنّ الشّاعر لايؤمن إيماناً راسخاً بتجربة المعانی الملهمة. قدتســبّبت مجموعة من العوامل الداخلية والبيئية فی مزاج بارد ويأس شـــديد فی الشـــاعر وجعلته يتجنّب العالم وكلّ مظاهره بلا هدف وكما يتجنّب الحياة الملتزمة والمســـؤولة. وفقاً للمبادئ الأساسية لـ"العلاج بالمعنی"، فهو لا يسعی إلی القيام بشـــیء مشـــرّف ذی قيمة، ولا يريد إنجاز تجربة قيمة و حبّ عظيم فعلی أثر ذلک لا يسعی إلی تحمّل الألم والمعاناة. إنّ تحمل الألم و تقدّسه فی مواجهة معاناة العالم هو أحد المبادئ الأكثر وضوحاً والعامل الأكثر عملية فی "معنائية" مدرسة فرانكل.

فإنّ كلّ إنسان لديه معرفة كاملة بالعالم داخل وخارج نفسه. تُشير مؤشّرات أخری من مثل القبول والاحترام والتعاطف مع النفس الإنســـانية حتی فی المواقف الصعبة، والمسؤولية الذاتية والإيمان الذاتی بالحقيقة إلی أنّنا مسؤولون عن أفعالنا ويجب أن نكون ملتزمين فيما نفكّر و ننجز. والسلوک هذا هو المصدر النهائی لنجاح الإنسان وسعادته، فيتسنّی له أن يوفّر الســـلام والسعادة لنفسه وللآخرين بتأكيد الذّات واحترام رغبات الفرد واحتياجاته ومحاولة إيجاد طرق للتعبير عنه بأســـاليب مختلفة، وأيضاً بالسّـــلوک المحـــترم تجاه الذات عند التعامل مع الآخرين والعيش بطريقة فنية وتحمّل المســـؤولية وتوضيح أهداف وتطلّعات المرء، والقيام بأشـــياء تساعد علی إستكمالها بنجاح. هذه المبادئ والأسس المذكورة هی من التكنيكات المهمة لـ"المعنائية" التی لم تتجلّ فی أشعار إلياس أبو شبكة الا ضئيلاً جدّاً لدرجة أنّها لا تظهر.

محمد الفيتوری و "المعنائية" فی شعره

ولد محمد الفيتوری شـــاعر النضال الإفريقی بالسودان عام ١٩٣٠م لأب سودانی وأم مصرية و هو من كبار شـــعراء النهضة فی الســـودان. ونشرت "أغانی أفريقيا" سنة ١٩٤٨م فكانت بداية شهرته. يأتی شعره من ثقافتين أفريقية وعربية. (القاعی، ١٤١٤: ٤٥) يمكن رؤية المشـــاكل والمعاناة فی الشعوب العربية فی آسيا والشرق الأوسط فی قصائد محمد الفيتوری شـــاعر المقاومة العربية. يقيم الشاعر علاقة عاطفية مع الجمهور

بمهارة خاصّة من أجل التعبير عن الأحداث السياسية والاجتماعية والمظالم بلغة الشعر. شـــعره ملىء بحبّ الوطن واشمئزاز العدوّ، فإضافة إلى تأثّره بالشّـــعراء العرب قد تأثّر بالشّـــعراء الغربيين مثل مایاکوفسکی، بوشـــکین، رامبو وبابلونرودا وغيرهم. (صالح، ١٩٨٤: ٩-١٠)

يخاطب الشاعر داعياً النّاس فى الشّرق إلى المقاومة تجاه المحن والبلايا:

يا أخى فى الشـــرق فى كل سكن / يا اخى فى الارض فى كل وطن / انا ادعوک فهـــا تعرفنى ؟/ يا اخاً اعرفه... رغم المحـــن / إنّنى مزّقت أكفان الدجى / إنّنى هدمت جدران الوهن / إن نكن ســـرنا على الشوک سنينا / و لقينا من اذاه ما لقينا / ان نكن بتنا عراة جائعينا / إن نكن عشـــنا حفاة بائســـينا / إن تكن قد أوهت الفاس قوانا / فوقفنا نتحدّى الساقطينا / فبنينا لأمانينا سجونا (الفيتورى، ١٩٧٩: ٧٢)

نرى فى الأبيات أنّ الكلمات مثيرة جداً تنبعث عن قلب الشاعر وعاطفته الصادقة تجاه الوطن العربى والشـــعوب العربية. يدعو الفيتورى إلى النهوض على الرغم من كل الآلام والمحن باستخدام مفردات مثل تمزيق أكفان الدجى وجدران الوهن، السير على الشوک و البيتوتة جائعاً و العيش حافياً و عارياً، والتحدّى والصمود أمام الجور.

المبادئ الأساسية لفيكتور فرانكل فى شعر محمد الفيتورى

قد يواجه البحث البشرى عن المعنى فشـــلًا، وهو ما يسمّيه "العلاج بالمعنى" فشل الوجود ، وتستخدم كلمة الوجود بثلاث طرق وهى: ١-الوجود نفسه، وخاصّةً حالات الوجود الإنســـانيّة ٢- معنى الوجود ٣- محاولة إيجاد المعنى الحقيقى للحياة الشّخصية وهو البحث عن المعنى. (فرانكل، ١٣٨٩: ١٧٢)

يجـــب أن يؤخذ بعين الاعتبار أنّ جهد الإنســـان فى البحث عـــن المعنى والقيمة الوجودية فى الحياة لا يؤدى دائماً إلى التّوازن وقد يســـبّب التوتّر، وهذا التوتّر جزء لايتجزّأ من الصّحة العقلية والنّفسيّة.ولكنّه لا يوجد شىء فى العالم يساعد النّاس أكثر من إيجاد معنى لوجودهم فى الحياة.

لا توجد قاعدة عامّة أو شعار يمكن من خلالها إيقاظ الشّعور بالمسؤولية والالتزام

فى شـــخص أفضل من هذه الطريقة، لأن "المعنائية" تقود الإنســـان أوّلاً إلى أن يعتقد بـــأنّ الحاضر هو الماضى فى الحقيقـــة، ثم القبول بأنّه لا يزال من الممكن تغيير الماضى وإصلاحه، فتجعله أن يواجه قيود العالم و أحداثه من ناحية والغاية السامية التى يرمى اليها، من ناحية أخرى.

يعتمد أساس معالجة فرانكل للمعنى، بغضّ النظر عن الجوانب الفرعية التى ذكرناها آنفا، على ثلاثة مبادئ مهمة، وهى: القيام بعمل قيم ونبيل، والخبرة الســـامية والحبّ، وفى المرحلة النهائية، فهم حقيقة معانى الألم والمعاناة واعتبارها مقدّســـة.كما ورد فى القرآن الكريم فى الآية ٤ من سورة بلد: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾

إنجاز العمل النبيل

الطريقـــة الأولى للوصول إلى "المعنائية" بوجهة نظـــر فرانكل هى القيام بعمل قيم و نبيـــل، وهى طريقة واضحة يتمّ تحقيقها من خلال العمل والنشـــاط. يحاول الفيتورى لتحقيق عمل عظيم بالتأكيد والإستمرار، فهو يسعى إلى إصلاح الدّول العربية فى الشّرق الأوسط وشمال إفريقيّا خاصّة، حتى تعيش شعوب هذه الأراضى بكرامة ومجد ولا تحت نير الاستعمار والاستبداد. يرى الشاعرُ مانديلا كرمز للكرامة والحرية ويطالب بطريقته الحكيمة:

ســـاكن ابداً فى طقوسک مثل اله قديم / يرصّعه ذهب الشّمس / كيف يكون جلال الشّهادة/ ان لم تكن أنت / تولد فى الموت .../ تكبر فى الموت .../ انت سجين هناک/ اغرقتنى فى إكتمالک / مانديلا ، مانديلا (الفيتورى، ١٣٧٩: ٧٤)

يعتقد محمد الفيتورى أنّه بالإصرار والمثابرة و الإستمرار، يمكن للمرء أن يتغلّب على قمم الكرامة العالية ويقف موقفاً وقف مانديلا. ما يهدفه الشاعر محدّد وواضح، والقدوة هذه تجعل الفيتورى أقوى وكما تجعل منه شخصية مسؤولة وملتزمة. يعتمد هذا الالتزام والمسؤولية على المعنى المركزى المشار اليه، كما يخضع لخطة فرانكل المنهجية.

يســـتخدم الفيتورى فى إنجاز ذلک الهدف النبيل، ســـلاحه وهو الشّـــعر والكلام، ويتصدّى عن قصد وثبات للظّلمة والارتباكات النفسيّة، وينشد الشعر بمسؤولية والتزام.

إنّ الشّعر عنده وسيلة و فنّ أيضاً فى نفس الوقت:

صناعتى الكلام / ســـيفى قلمى /و كلّ ثروتى شعور و نغم / لستُ وَاحداً مِن أنْبياء العَصر /...صناعتى الكلام / قد أجيدُ تَارَهْ ...وقد أخطئُ تَارَهْ (الفيتورى، ١٩٧٠: ٧)

يعتبر الفيتورى أرض إفريقيا مقدّســـة فى مواجهة الاستعمار ويعتبرها تراثًا قيماً يجب تســـليمه إلى الأجيال القادمة، وهذا هو الالتزام الذى يراه على عاتقه. إنّه يدعو الأمة إلى الثـــورة، لأنّ الأمم يمكنها أن تقرّر مصيرها.يرى الشـــاعر أنّ أفريقيا ينتمى لشعوب هذه الأرض وأناسها.

افريقيا / افريقيا النائية / يا وطنى ...يا ارض اجدادية / انى انادیک / ألم تسمعى صراخ آلامى و احقادية (الفيتورى، ١٩٦٧: ٢٦)

وينشد أيضاً:

الملايينُ أفاقَت من كراها / ما تَراها مَلأَ الأفقَ صداها / خرجت تبحث عن تاريخها / بعد أن تاهت عن الارض و تاها / حَمَلَت أفؤسَـــها وانحدرت / من روابيها و أغوارِ قُراها / فَانظُـــرِ الإصرارَ فى أعيُنها / و صياحَ البَعثِ يَجتاحُ الجِباها / يا اخى فى كل ارض وجمت / شفتاها واكفهرّت مقلتاها / انطلق فوق ضحاها و مساها / يا اخى قد اصبح الشعب الها / قُم تَحَرّر من توابيتِ الأسى / لَستَ أُعجوبَتَها أو مومياها... (المصدر نفسه: ٣٥)

يفيض الالتزام التّحفيزى بأفريقيا فى شعر محمّد الفيتورى. هذا هو نفس الإحساس القوى والدّافع البنّاء الّذينِ ذكرهما فيكتـــور فرانكل كمبدأ لـ"العلاج بالمعنى". يمكن أن يكون هذا المبدأ التحفيزى منقذاً لروح الإنســـان وجسده فيجعل حياته مليئة بالدّوافع والقوّة والسّلطة بدلاً من اليأس والفراغ.

الحبّ الأسمى

الطريقة الثانية للعثور على معنى الحياة هى من خلال التجارب القيمة مثل التعامل مع عجائب الطّبيعة أو الثّقافة أو إدراک موضوع يسمّى الحبّ. الحبّ هو السبيل الوحيد للوصول إلى أعماق إنســـان آخر. لا أحد لديه القدرة على فهمها بشكل كامل إلا من

خلال الحبّ الجوهرى بالنّسبة إلى إنسان آخر أو مخلوقات أخرى فى كشف و ازدهار نفســه فى نفوس الآخرين و رؤية جوهره فى الأشياء الأخرى. فإنّه الجانب الروحى للحبّ الذى يساعدنا فى اكتشــاف السمات الرئيسية والخصائص الحقيقية. بالإضافة إلى ذلک، يمكن للحبيب، بقوّة الحبّ، إدراک مواهبه وتحقيقه، و هذا مانراه كثيراً جدّاً فى أشعار الشّعراء الإيرانيين مثل حافظ الشّيرازى و مولانا جلال الدّين الرومى وغيرهم.

لا شــكّ فى أنّ محمد الفيتورى يســتخدم الحبّ بكلّ معانيه ومظاهره كهدف لكبح الروح الشاردة للإنسان وكطريقة للتعبير عن مشاعره الدّاخلية ومواجهة الظلم، وتكون هذه الحالات كلّها ممارســة قيمة تقوم على"المعنائية" فى إطار نظرية فرانكل فى كتابه "العلاج بالمعنى".

ينشد الفيتورى:

لستُ واحداً من أنبياء العصر /...لكنَّ لى هوىً يكبرُ كلَّما أكبُرْ /لا أمنحْه مرةً لملک مُتــوَّج /وَلا أمرِّغ وَجنَتيه فوق أعتاب صنم /صناعتى الــكلام /قد أجيدُ تارَة ...وقد أخطئُ تارة (الفيتورى، ١٩٧٩: ٧)

فينشد أيضاً:

صوتُک هذا / إنّنى أكاد أن المســه / اكاد أن أنشقّ فى غصونه / صوتُک يا إفريقيّا / هذا الذى يهزّنى هزّ الأعاصير صداه / أحّبه ....و هوانفعال / و دم يغلى / أحبّه ...و هو بريق أعين / تشــنجّت فيها إرادة الحياة / أحبّه ...و هو خطى عارية / صوتک يا افريقيّا / صوت الاله (المصدر نفسه : ١٤٢-١٤٣)

يعدّ الحبّ من المبادئ المركزيّة والبنّاءة للنّفس فى"المعنائية" أو "العلاج بالمعنى" وهو الذى تحرّر الشّــخص من نفسه، فيمكن أن يتجلّى الحبّ فى النّاس والبلد والدّين وأى شىء آخر. يمكن لهذا الحبّ المحفّز والمتسلّل أن يقود الإنسان إلى ذروة السلطة الروحية والمعنائيّة. وكما عبّر عنها العبقرى الإيرانى مولانا جلال الدين الرومى شــاعر الحبّ والعرفان بشكل جميل للغاية:

حيلت رها كن عاشقا ديوانه شو و اندر دل آتش درآ پروانه شو پروانه شو

هم خويش را بيگانه كن هم خانه را ويرانه كن وآنگه بيا با عاشقان هم خانه شو هم خانه شو

بايدكه جمله جان شوى تا لايق جانان شوى گرسوى مستان مى روى مستانه شو مستانه شو
(مولانا، ١٣٨١: غزل ٢١٣٣)

يدعو مولانـــا الرومى فى هذه الأبيات إلى الغرق فى الحبّ و الوصول الى الجنون كفراشة ترمى بنفسه فى النار لتحترق و تهلک حتى ترى الحبّ و المحبوب.يعتقد الرومى أنّه يجب على الإنسان أن يبتعد عن نفسه و ينساها حتى يدرک الحبّ الحقيقى.

وأمّا الفيتورى فحبّه لوطنه فريد جداً. إنّ حبّ الوطن والإيمان به من أهم خصائص شعر الفيتورى، وأفريقيا هى مركز هذه الوطنية التى تقع محوراً خالداً لشعره.

انا لا أملک شـــيئاً غير ايمانى بشعبى / و بتاريخ بلادى / و بلادى ارض افريقيا البعيـــدة / هذه الارض التى احملها ملء دمائى / والتى انشـــقها ملء الهواء / و التى اعبدها فى كبرياء (الفيتورى، ١٩٧٢: ٥٨)

يشـــتمل جزء كبير من ديوان الفيتورى على الحب للوطـــن وحبّ أرض أفريقيا، فقد أنشـــد قصائد كثيرة مثل "من أغانى إفريقيا" و "طفل الحجارة" عن أرض فلسطين و "الـــتراب المقدس" و قصيدة "هوانا" والعديد مـــن القصائد الأخرى و هى تدلّ على حبّه العميق تجاه الناس خاصة الشـــعب العربى. هذا الحبّ مثل جسر يقوده من دهشة عالم الشعر إلى الازدهار والالتزام الهادف فى قصائده. إنّ الحياة الهادفة والقائمة على المعنى والحب هى إحدى المبادئ الأساسية لـ"العلاج بالمعنى" فى مدرسة فرانكل.

حرمة المعاناة

عندما يواجه الشخص موقفاً صعباً لا مفرّ منه، أو يواجه مصيراً لايتغير، مثل مرض عضال أو بعض أنواع السرطان مثلاً، يجد فرصة للوصول إلى أعلى القيم وأعمق المعانى للحيـــاة، وهذا هو تحقّق معنـــى المعاناة عنده. المعاناة هى أفضل مؤشّـــر لقيمة الوجود البشـــرى. فإنّ الطريقة التى ينظر بها الشخص إلى المعاناة أو الطريقة التى يتحمّل بها هذه المعاناة مهمة للغاية. يعتقد عدة أخرى من العلماء أيضاً أنّ معنى الحياة هو النضال للوصول إلى حد الكمال. (آدلر، ١٩١٩: ٤١)

بالنظر إلى أنّ الحياة تمضى، فإن "العلاج بالمعنى" يدعو الناس إلى الجهد والنشـــاط

بدلاً من الإنعزال. فشير الفيتورى اليه:

ضـــع أقنعة الآلهـــة على وجهک / و تحدّ القهر / اصلب عينک / اصلب شـــفتيک / اصلب رأســـک / اصلب شمســـک / لا تتعذّب ...لا تتألّم / أمضغ أحزانک و تبسّم (فيتورى، ١٩٧٩، م١: ٤١٢)

يعتبر الفيتورى الصليب رمزًا للاستقرار والبطولة، والموت فى طريق الحرية والوطن مصدر خلود:

فقير أجلْ ...ودميم دميم / بلونِ الشـــتاء،بلون الغُيوم / يسير فتسخر منه الوجوه / فيحمل آلامه فى جمود / ويحضنُ أحزانه فى وجوم / ولكنّه أبداً حالم وفى قلبه يقظات النجـــوم /فقير ..فوجـــه كأنّى به دخان تكثّفَ ثمّ التحـــمْ / وعينان فيه كأرجوحتين / مثقّلتين بريح الألم (الفيتورى، ١٩٧٩: ١٧)

إنّ الفيتورى شـــاعر ملتزم على الرغم من وفور عنصر الخيال فلا ينأى بنفسه عن المعتقدات الدينية،وهو يخدم القرآن الكريم ويعتمد كثيراً على هذا الدعم القوى ويأمل فى الإصلاح فى المواقف الصعبة جداً ويرى نفسه مسئولاً أمام الناس، كما يشير فيكتور فرانكل فى كتابه "الإنســـان نحو المعنائية" مراراً وتكراراً إلى هذا الشـــعور بالالتزام والمسؤولية كمبدأ لإنقاذ الروح.

فيتذكر الفيتـــورى المعاناة التى تحمّلها فى الماضى فى طريقـــه إلى الحرية، فيدعو الناس إلى النهوض بصوت عالٍ. يعتبر الشـــاعر كل الآلام والمعاناة فى طريق حرية الوطن وإزالة الشرور حلواً و خلاباً:

إن نَكن سِرنا على الشّوک سنينا... /إن نكن عشنا حفاة جائعينا/...إن تَكن أوهَنتِ الفأسُ قُوانا /فوَقفنا نتَحدّى الظّالمينا... /فبَنَينا لِأمانينا سُجونا /...وملأنا كأسه من دمنا /فتســـاقانا جراحاً وأنينا /وجعلنا حجر القصر رؤوسا /ونقشناه جفوناً وعيونا /فلقد ثُرنا على أنفُسِنا /ومحَونا وَصمة الذِّلَّة فينا (المصدر نفسه: ٧٣)

فإنّ العديد من الدوافع مثل الدين والتركيز على الله، والوطنية ومناهضة الاستعمار، والقضايا الفلسطينية وخاصةً مصائب أفريقيا، هى رموز تُقدّس آلام الفيتورى ومعاناته. وبهذا النوع من التفكير يحبّ الألم ويعتبره مصدر فخر واعتزاز. (الفيتورى، ١٩٧٠: ٨)

يعتبر فرانكل تحمل الألم والمعاناة أهم مبدأ للمعنى. إنه يعتقد أنّنا إذا وجدنا سـبباً روحياً أو دنيوياً لعذاب العالم، بصرف النظر عن الحقيقة، فإّن هذا الفهم الروحى يسبّب الالتزام والمسـؤولية و يسـهّل أيضاً تحمل الألم والمعاناة بما لها من معنىً وهدف يؤدى إلى الخلاص والقيام بشـىء عظيم و نبيل. فإن فهم طبيعـة المعاناة هو الذى يداعب الروح البشرية ويكون مهدئاً وليس مزعجاً لها. وهذا فرق واضح بين نوعين من التفكير وفلسفة الحياة؛ تفكير لا يرى غاية لمعاناة الإنسان ويؤدى إلى الفراغ والانعزالية، ومن ناحية أخرى تفكير آخر يعتمد على الهدف العالى لكل عمل فيعتبر المعاناة فى سـبيله مقدسة وصالحة.

النتيجة

وختاماً يمكن استخلاص النتائج أدناه:

يبحث فيكتور فرانكل وعدد كبير من المفكّرين مثل أدلر، ماسلو، شولتز والآخرين بمبادئهـم وتكتيكاتهم فى العصر الحديث، حيث تعانى البشـرية من الفراغ الوجودى، عن المعنى كقوة دافعة للبشـر خلافاً لمبدأ أصالـة المتعة فى فكرة فرويد، وبالتالى، فإنّ دلالات "المعنائية" متجذّرة فى تاريخ الفكر الإنسـانى وما تبلورت فى الأدب والشعر. تتأثر"المعنائية"، إضافةً إلى الاعتماد على طبيعة الإنسـان وفطرته، بالعوامل الخارجية مثل أحداث الحياة سـعيدة كانت أم لا. فنرى أنّ دراسـة الأعمال التى تركها إلياس أبوشـبكة ومحمد الفيتورى و هما من الشـعراء الكبار فـى الأدب المعاصر، أظهرت الازدواجية والاختلاف الواضح فى نظرتهما الى الدنيا وفلسفة الحياة، فتبلورت الأبعاد النفسية (السـيكولوجية) والاجتماعية (السوسيولوجية) لـ"معنائية" فيكتور فرانكل فى دراسـة مقارنة لأشـعارهما. تُبين دراسة قصائد إلياس أبوشـبكة أنّ الشاعر قد تأثّر بأحداث مريرة فى حياته، ولجأ إلى الدنيوية الشـديدة واقترب من الفراغ الوجدانى والعدمية. فللحياة وأحداثها دور أساسى فى الالتزام بالمعنى وكذلك بلورة هذا الالتزام فى إنتاجات الأدباء و الشعراء. فنرى أنّه تتجلّى وجهات نظر ويكتور فرانكل فى كتابه "العلاج بالمعنى" وهى التى تقوم على اكتشاف المعنى بثلاث طرق هى: القيام بعمل نبيل

و تجربة "قيمة"سامية وتقدّس المعاناة وحرمة الألم، فى أشعار الفيتورى. فالشاعر يعتمد علـــى المثل العليا وهى نقطة البدء فى بناء المحتوى الداخلى للبشـــرية جمعاء، ويحارب الظلم ويحـــبّ أرض إفريقيا، كما أنّه يعتبر المعاناة فى حياته و حياة الشـــعب العربى مقدّســـة. يلوح هذا الحب و هذه المعاناة و الألم فى جميع أنحاء قصائده. وأمّا ابو شبكة فيفتقر شـــعره إلى الحبّ والهدف النبيل والمعاناة المقدســـة كمبادئ أساسية لـ"المعنائية". يمتلئ شـــعره بالشعور بالوحدة و اليأس الذينِ يصوّران جميع جوانب الوجود الإنسانى نحو الهدم والدمار، ولكنّنا نرى أنّ الفيتورى فى شعره يتجنّب عن مخاطر العبثية، بخلطه بين حرمة المعاناة و الحبّ و الغاية الســـامية و الالتزام الإنســـانى، فيحقّق تجربة إلهام المعانى بالجمع بين الأمل والمعنى. فإنّ التاكيد على محورية النفس و المسئولية الذاتية و الاعتزاز بالنفس وتبجيلها مع كل المبادئ المشارة اليها هى التى بانعكاسها فى الأدب و الشـــعر و كل الأعمال الفنية، تجلب الرضا و السكينة للشخص و للآخرين،فإتّصف معظم قصائد محمد الفيتورى بهذه الأسس، بينما لم تظهر هذه المبادئ فى شعر أبو شبكة. فمن الأبعاد العديدة التى تؤثر على سلوك الإنسان، يظهر بوضوح دور الأبعاد النفسية والاجتماعية والبيئية فى أعمال هذين الشاعرين.

المصادر والمراجع

الف.العربية

القرآن الكريم
ابوشبكه، الياس. (١٩٩٩م). الاعمال الشعرية الكاملة. بيروت: دار العودة.
الباوى، محمد المحمود. (٢٠٠٤م). عمالقة الادب العربى المعاصر. بيروت: دار الأرقم.
بقاعى، ايمان. (١٤١٤ق). الفيتورى، الضائع الذى وجد نفسه. بيروت: دار المكتب العلمية.
سابايارد، نازک. (١٩٦٩م). الياس ابوشبكة قلب سال شعراً. بيروت: بيت الحكمة.
شرارة، عبد اللطيف. (١٩٨٢م). الياس ابو شبكة. بيروت: دار بيروت.
صالح، نجيب. (١٩٨٤م). محمد الفيتورى و المرايا الدائرية. ط١. بيروت: الدار العربية للموسوعات.
عبود، وليد نديم. (١٩٩٨م). الياس ابو شبكة، المجموعة الكاملة فى الشعر. مصر: لانا.
الفاخورى، حنا. (١٤٢٧ق). الجامع فى تاريخ الادب العربى. قم: انتشارات ذوى القربى.
الفيتورى، محمد. (١٩٧٢م). الاعمال الكاملة. مصر: مطبعة الهيئة المصرية.

ـــــــــــــ . (١٩٧٩م). ديوان. ج١و٢. بيروت: دار العودة.
موسی، منيف. (١٩٧٦م). محمد الفيتوری شاعر الحس و الوطنية و الحبّ. بيروت: دار الفكر العربی.

ب. الفارسية

شـــولتس، دوان. (١٣٦١ش). روانشناسی كمال و الگوهای شـــخصيت سالم. ترجمه گيتی خوشدل. طهران: نو للنشر.
فرانكل، ويكتور. (١٣٨٩ش). انسان در جست و جوی معنی (الإنسان فی طلب المعنی). ترجمة مهين ميلانی –نهضت صالحيان. ط٢٣. طهران: درسا للنشر.
ـــــــــــــ (١٣٦٦ش). پزشک و روح (الطبيب و النفس). ترجمة فرخ سيف بهزاد. طهران: ويس للنشر.
ـــــــــــــ (١٣٨٨ش). فرياد ناشـــنيده برای معنی، روان درمانی و انسان گرايی (صرخة غير مســـموعة للمعنی، العلاج النفســـی والإنســـانية). ترجمة مصطفی تبريزی و علی علوی نيا. طهران: فراروان للنشر.
مولانا، جلال الدين. (١٣٨١ش). كليات شمس تبريزی. ط٣. طهران: سنايی للنشر.

ج.الإنجليزية

Adler, Alfred. (1919). Problem of neurosis Kegan paul. London: New haven .yale university press.
Mazlow . A . H. (1971). self-Aktualization and Beyend in challenjes of Humanistic Psychology New York. Megrow Hill. P. 281.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی